



في هذه السورة تكرر معنى التعظيم لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ورعايته حقه وعدم أذيته وكأنه هو المقصود الأعظم من هذه السورة. ففي هذه السورة ذُكرت الأذية التي تلحق هذا النبي الكريم من أعدائه المشركين، وأعدائه المنافقين، وأذية أصحابه، وأذية زوجاته، وأذية الجمهور العام وهو يبلغ رسالات الله، ثم ذكر الله في خاتمتها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا} (سورة الأحزاب: 69).

وفي هذه السورة جاء التوجيه الرباني لنبيه الكريم في التعامل مع هذه الأذية، وهو أسوة حسنة لكل من أُوذى من الدعاة والمصلحين.

حين قرأتُ سورة الأحزاب لفت انتباهي هذا المعنى المتكرر، وكأنه الخيط الناظم لمعاني السورة وآياتها. ثم راجعت الألفاظ فوجدت سورة الأحزاب هي أكثر سورة ورد فيها هذا النداء: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}، وقد أشار ابن عاشور لتكرار هذا النداء في هذه السورة. ووجدت أنَّ كلمة: (الأذية) ومشتقاتها هي الأخرى أكثر ما وردت في سورة الأحزاب، ثم يأتي التوجيه الرباني الواضح: {وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} (سورة الأحزاب: 48).

إنَّ العدو يؤذى والصديق يؤذى كذلك، والبعيد يؤذى والقريب يؤذى كذلك. وهذه الأذية وإن اختلفت في دوافعها ومقاصدها إلا أنها تحمل معنى الأذى. وربما استطاع الرجل أن يقاوم ويتحمل الأذى من أعدائه ومناوئيه، ثم يعجز عن احتمال الأذية من أصحابه ومحبيه. بعض الأذى يأتي من الحب، (عشم المحب) تصعب مقاومته، وقد يترك الإنسان شيئاً من مصالحه وقناعاته رعاية لعشم المحبين.

إنَّ رعاية أذية الأعداء توصل الإنسان إلى سجنٍ قضبانه من حديد، ورعاية عشم المحبين توصل إلى سجن آخر قضبانه من حرير، {وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَى} (سورة الأحزاب: 7).

لقد ذكرت السورة أذية المشركين والمنافقين؛ المشركون يأتون إلى المدينة بجيشهم وعتادهم يريدون أن يستأصلوا شأفة

هذا النبي ودعوه، والمنافقون في صفوف المسلمين يبثون الوهن والفتنة ويخذلون المسلمين في كربلا وشتمهم. ولهم ألسنة حداد تصل إلى القلوب والعقول بشبهاتها وتعويقها: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَاتِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هُلُمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا} [سورة الأحزاب: 18].

وأذية أهل الشرك والنفاق مشهورة معلومة، لكن هناك أذية أخرى تأتي من المحب وهو لا يشعر، أذية تأتي من فرط الحب والقرب: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيْتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَسِرُوا وَلَا مُسْتَأْسِسِنَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ} [سورة الأحزاب: 52].

ومع الحياة من جهة، والحب من جهة أخرى، قد تستمر الأذية طويلاً، وتأخذ من الجهد والطاقة ما تأخذ، وهي في النهاية على حساب الهدف الأسمى وتحقيق المشروع وبناه.

كذلك تأتي الأذية من أهل البيت، وربما حصل التنافس البشري المعتاد داخل البيت، وكان على حساب هذا النبي الكريم، فجاء التوجيه الرباني وحسم هذا النوع من الأذى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَا زَوْجِكَ إِنْ كُنْتَ تُرِدُّنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِيَّنَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمْتَعْكُنَّ وَأَسْرِحُكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا} [سورة الأحزاب: 28]. وإن كُنْتَ تُرِدُّنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعْدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا [سورة الأحزاب: 29]. وهو أقرب لأذية النفقه والتنافس عليها. وفي أذية القسم ونحوه: {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُنْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَّلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ أَذْنِي أَنْ تَقْرَأَ أَعْيُنَهُنَّ وَلَا يَحْزُنَ وَيَرْضِيَنَ بِمَا آتَيْتُهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا} [سورة الأحزاب: 51].

وفي هذه السورة ذكرت قصة زواج النبي - صلى الله عليه وسلم - من زينب وقد كانت زوجة لزيد الذي نُسب لرسول الله قبل أن يحرم التبني.

وكان لهذا الأمر تأثير خاص على نفسه - صلى الله عليه وسلم - حتى صرَّح القرآن بعثاته: {وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ} تقول عائشة رضي الله عنها: لو كتم محمد - صلى الله عليه وسلم - شيئاً مما أوحى إليه من كتاب الله لكتم: {وَتَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِي وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ}.

ثم جاء التعامل اللائق بمقام النبي الكريم، وهو كمال الحب والتعظيم والدعاء: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلِّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [سورة الأحزاب: 56]. إنَّ الَّذِينَ يُؤْذِنُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنْهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعْدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا [سورة الأحزاب: 57].

ورعاية حقه وعدم أذيته يكون في حياته وبعد مماته: «وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذِنُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبْدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا» [سورة الأحزاب: 53].

والوصية للنبي الكريم، ولكل محبٍ وتابع يدعو إلى الله ويعاني أمر الإصلاح: {وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} [سورة الأحزاب: 48].

المصادر: